لا أُشبهكَ!

لا أُشبهكَ

رغد أيمن

الإهداء

لكُلِّ فتاةٍ ذاتَ قلبٍ نقيّ..
ولكُلِّ شابٍ ذي مروءةٍ وحياء..

أُهديكم هذه الرواية!

في الخارج، حيث كانت الأجواء تَشي بذُروة الشتاء.. السماء مُلبدةٌ بالغيوم، تُنذر بهطول المطر.. والهواء البارد كالثلج..

أما بالداخل، حيث كان الأب يجلس أمام التلفاز يُتابع الأخبار.. جاءه اتصال على هاتفه..

- نعم..؟

أجابه الطرف الآخر بصوت متوتر مُضطرب:

- البقاء لله! لقد تُوفي أخوك!

انتفض من مكانه صائحاً بصوتٍ مرتجف، وبعدم تصديق:

- ماذا!

أتت الزوجة بفزعٍ على الصوت، بينما أعاد الطرف الآخر حديثه..

ابتلع الأب ريقه بقلبٍ مُتألم، ثم أغلق المكالمة..

رأته زوجته وقد تهدل كتفاه بتعب، فجلست بجانبه وسألته بخفوت:

- مـ.. ما الذي حدث؟

سقطت دمعة من عينيه، لم يستطع التحكم بها.. ثم أجابها بصوت مختنق:

- مات أخي!

وضعت يدها على فمها بصدمة، بينما تنظر له بعينين ملتمعتين إثر الدموع.. أكمل الآخر حديثه بفتور:

- أخبري **"جيهان"**، سوف نذهب اليوم.. وجهّزوا ملابس إضافية فربما نظل هناك لفترة.

ابتلعت الأم ريقها، وهي تستمع لأوامر زوجها.. تعلم تماماً رد فعل ابنتها على طلبه ذاك..

*****

- مستحيل**!** لن أذهب لهؤلاء الفلاحين**!**

صاحت بها **"جيهان"** بعصبية، بعدما أخبرتها والدتها بما حدث.. أجابتها والدتها بحدة:

- اخفضي صوتكِ وأنتِ تتحدثين معي**!**

زمّت الأخرى شفتيها بضيق، فأكملت الأم:

- بالطبع سوف تذهبين معنا.. هذا عمكِ الذي تُوفي، وليس شخصاً غريباً**!**

عقدت **"جيهان"** ذراعيها أمام صدرها بتأفف، فقالت لها الأم وهي تخرج من الغرفة:

- تجهزي، نصف ساعة بالضبط وسنتحرك.. وأيضاً لا تنسي تحضير ملابس إضافية، فيبدو أننا سنمكثُ هناك لفترة.

سمعت تأفف ابنتها بعنف، قبل أن تُغلق الباب، فهزت رأسها بيأس عليها!
بعد خمس وثلاثين دقيقة، كان والداها يقفان أمام الباب..
صاح الأب بنفاد صبر:
- **"جيهان"**، هيا لنرحل!

دقيقتان، وكانت تخرج من غرفتها وهي تحمل حقيبة ملابسها..
نظر الاثنان بعيون مُتسعة لما ترتدي..
فقد كانت ترتدي فستاناً أسود يكاد يغطي ركبتيها، وتحته شرابٌ طويل شفاف.. وقد تركت شعرها القصير حُراً!
تحدث الأب وهو يعقد حاجبيه:
- هل ستذهبين هكذا؟!
تصنعت البراءة وهي تنظر لملابسها قائلة:
- ما بي؟ إنها ملابسي المعتادة.
أجابتها والدتها بهدوء:
- نعم ملابسكِ المعتادة، ولكننا ذاهبون إلى (الصعيد).. لا يجوز أن ترتدي مثل تلك الملابس هناك!
هزت **"جيهان"** كتفيها بعدم اكتراث، وقالت:
- لن أغيّر من طريقة ملابسي لأجل أحد!
كادت الأم تُجيبها بعصبية، ولكن قاطعهم الأب بحدة:
- يكفي ذلك.. هيا حتى لا نتأخر!

صعدوا لسيارة الأب، وبدأوا بالتحرك..

كانت **"جيهان"** تجلس في المقعد الخلفي.. تستند على زجاج النافذة المُغلق بينما قطرات المطر تنزل على الزجاج بهدوء..
أخرجت هاتفها، ووضعت سماعات أذنها ثم شغّلت الأغنية المُفضلة لديها، والتي تظنُّ هي أنها تُعبر عن حالها!
لم تُراعي أن عمها قد تُوفي، ولم تتعظ أنها ذاهبة لتُعزّي فيه!

*****

استغرق الطريق وقتاً طويلاً، حتى وصلت السيارة بالأسرة الصغيرة..
كان منزل العائلة، يُشبه الفيلا في تصميمه.. وقد كانت السماء أقلعت عن المطر، باستثناء بعض القطرات اللاتي تمرَّدْن بهدوء..
نزلت **"جيهان"** من السيارة، ونظرت تجاه المنزل الكبير..
طرق قلبها بسعادة لمنظر الشمس وهي تغرُب بحياء، وقد أضفت على الجو جمالاً..
أسرعت بإخراج هاتفها، ثم التقطت العديد من الصور لذلك المنظر..

ومن بعيد، حيث كان يقف أمام الباب.. رآها فهزّ رأسه منها بيأس.. يأسٍ من ملابسها، ويأسٍ من أفعالها!
اتجه ناحيتهم ليُسلّم على خاله، وبالطبع فإنه قد حوّل نظره بعيداً وهو يُسلّم على **"جيهان"**..
ابتسمت الأخرى بسخرية، ثم قالت:
- هل أنا قبيحةٌ؟! لِمَ لا تنظر لي؟!
شعر بالإحراج ولم يُجبها، أما والدها فأجابها بحدة:
- **"جيهان"**! تأدبي وأنتِ تُحادثين ابن عمتكِ!

تجاهلت هي ذلك النابضُ داخل صدرها وهي تنظر إليه مُتفحصة، ثم قالت وهي ترفع حاجبها:
- عندما يُعاملني هو أولاً كابنة خاله!
تحدثت الأم بحسم، لتُنهي هذا النقاش:
- **"محمود"** يا ولدي، هل يُمكننا أن ندخل؟
أومأ برأسه مُسرعاً، وهو يحمل معهم حقائبهم..

وكعادتها في المرات النادرات التي تزور بها عائلة والدها، ظلت عيناها تجول في المكان..
الفناء الواسع ذو الأعشاب والأزهار المتناثرة.. أريكة وكرسيان، وأمامهما طاولة صغيرة.. وبالطبع في ركن بعيد، سياراتان مختلفتا الأحجام وقد انضمت إليهما سيارة والدها الثالثة.. والذي يجمعهم اللون الأسود..

دخلت **"جيهان"** المنزل مع والديها وابن عمتها، وبالطبع كان الصمت هو السائد في المكان..
تساءل الأب بفتور:
- أين الجميع؟ أبي، أختي..
ثم ارتعشت شفتاه وهو يُكمل:
- و، وأخي.
تنهد **"محمود"**، ثم قال بهدوء حزين:
- النساء يجلسن مع زوجة خالي بغرفتها، أما باقي الرجال فهم يجلسون بغرفة خالي رحمه الله.

اتجه الأب مع **"محمود"** تجاه الغرفة، بعدما أمر زوجته وابنته بالذهاب لغرفة النساء..
صعدت **"جيهان"** مع والدتها وهي تتأفف بداخلها.. كرهت تجاهله لها..

هل نسيها؟ هل أصبحت لا تعني له شيئاً؟ أم أنه استعاض عنها بأخرى؟ أسئلة ظلت تدور برأسها وهي تصعد على السلم، وطبعاً لا إجابة عنها!

وصلت غرفة النساء مع والدتها، وقبل أن تدخل حذّرتها والدتها قائلة:

- كوني مهذبة، لستِ صغيرة لأخبركِ بذلك.. ولكني للأسف أعلم لسانكِ، لا يستطيع الصمت دون إحداث مشاكل!

طرقت الباب، ثم دخلتا..
كانت النسوة يتشحنَ بالسواد.. عباءات سود وحجاب أسود..
وكانت **"جيهان"** هي الغريبة وسطهن، بملابسها التي لا تليق بفتاة ذاهبة لتُعزّي في عمها، ناهيكَ عن فتاةٍ مُسلمة!

كلهن نظرن لهما ورحبن بهما، وطبعاً كانت الأعين على **"جيهان"** لشذوذها عنهن..
جلست مع والدتها على السرير المُقابل لهن، وبعد دقيقة كانت امرأة منهن تُكمل وصلة بكائها والأخريات يواسينها بدموعٍ تنهمر على خدودهن..

جالت بعينيها بينهن، بالأخص على ملابسهن المُحتشمة.. هل كان **"محمود"** يريدها أن ترتدي مثل تلك الملابس؟! "تباً له ولأفكاره الرجعيّة!"

قالتها لنفسها بغيظ، ثم أفاقت على صوت زوجة عمها وهي تقول ببكاء:

- دائماً ما كنت أُخبره أن يتزوج غيري حتى يُرزق بالأولاد.. وكان يرفض، لم يرضَ أن أشعر بالحزن! ولكني والله لم أكن لأحزن، كل ما تمنيّته أن يكون لديه ولدٌ يفرح به.. ولو كان من غيري!

على الرغم من شعورها بالشفقة تجاه تلك المرأة، إلا أن عينيها اتسعتا وشعرت بالدهشة تعتريها..
كيف تدّعي تلك المرأة حُبّها لزوجها، وهي قد عرضت عليه ما عرضت؟! سؤالٌ ظلّ يدور بذهنها قبل أن تنتبه ليد امرأة ممدودة بقدح قهوة..

أخذت القدح بينما تنظر لوجه من أعطته لها، فعقدت حاجبيها بخفة.. اندهشت من ذلك الوجه الغريب، والذي لم تره من قبل، ولكنها لا تُنكر أنها جميلة..
ارتشفت القهوة ببطء وتلذذ، قبل أن تسمع والدتها تقول بهدوء ورصانة:

- البقاء لله! بإذن الله هو في مكانٍ أحسن من هنا.

تمتمت زوجة عمها: "ونعم بالله!"، ثم نظرت تجاه **"جيهان"** وابتسمت بخفوت قائلة:

- لقد كبرتِ، وأصبحتِ جميلة.

ابتسمت الأخرى مُجامِلةً لها، ثم عمّ الصمتُ مرة أخرى إلا من صوت القرآن..

*****

في اليوم التالي، حيث كان الرجال جالسين في المكان المُخصص لأخذ العزاء.. كان جد **"جيهان"**، والد الرجل الذي تُوفي، يجلس صامتاً شارداً.. اقترب منه حفيده **"محمود"**، وأعطاه كوب ماء ثم ربّت على يده بخفة.. ثوانٍ حتى شعر بخيالٍ يقف من بعيد، رفع نظره فوجدها.. **"جيهان"**..

نظر بسرعة للرجال حوله، فوجدهم ينظرون للأرض بهدوء.. أعاد نظره لها وهو يقف مُتجهاً نحوها، يبدو أنها تبحث عن والدها، وهو الآن مشغولٌ مع الرجال..
سألها بهدوء وهو ينظر بعيداً:
- هل تريدين شيئاً؟
ابتسمت بسخرية وهي تُجيبه:
- أريد التحدث مع أبي!
أجابها قبل أن يرحل:
- والدكِ مشغولٌ الآن، ولا يجب أن تقفي هنا.. بملابسكِ تلك!

كادت تصيح به من الغضب، ولكنها تمالكت نفسها قدر المستطاع، وهي تُجيبه له بهمسٍ حانق:

- ملابسي تلك التي تركتني بسببها، أليس كذلك؟!

وما كاد يلتفت لها، حتى رحلت وهي تطرق الأرض بكعبها.. تاركةً إياه بقلبٍ يتمزق من قسوة الذكريات.. وقسوتها!

*****

ركضت **"جيهان"** ناحية الغرفة التي تمكث بها.. كانت تقاوم رغبةً عارمة في البكاء، وما إن دخلت الغرفة وأغلقت بابها، حتى تداعت لها ذِكرى ذلك اليوم.. قبل أربعة أشهر..

في إحدى زياراتها لمنزل العائلة، وبينما كان الجميع يجلسون مع بعضهم.. استأذن **"محمود"** من خاله ليتحدث قليلاً مع **"جيهان"**..

جلسا في نفس المكان، ولكن ابتعدا قليلاً عن البقية..

بدأت **"جيهان"** قائلةً بدلال:

- هل افتقدتني لتلك الدرجة؟

استغفر **"محمود"** بداخله، وتجاهلها قائلاً بابتسامة هادئة:

- **"جيهان"**، ما رأيكِ أن ترتدي الحجاب؟

كزّت على أسنانها، وقالت بغضب مكبوت:

- وما ذاك الآن؟ ألم تخطبني وأنا هكذا، غير مُحجبة.. إذاً ما الذي تغيّر؟!

نظر للسقف قليلاً يُرتّب كلماته، ثم قال بثباتٍ وهدوء:

- اقترب موعد زواجنا وأنا أُحبّ أن تكوني مُحجبة!

وضعت ساقاً فوق الأخرى قائلة بتحدٍ:

- وأنا لن أرتدي الحجاب!

تمالك صياحه الذي كاد يخرج على طريقتها في الحديث، وقال يُحاول إقناعها:

- يا **"جيهان"**، أنا لا أريد أن يكون جسدكِ أو شعركِ مكشوفاً.. من أراد المُشاهدة فليُشاهد كيفما شاء!

قالت بشراسة، وقد ارتفع صوتها قليلاً:

- أنا التي سأُحاسب، لا أنتَ! ثم..

انتبهت لهم أفراد العائلة، قبل أن يقاطعها بصرامة وهو يميلُ للأمام:

- ثم إنني إن تزوجتكِ سأُحاسب عليكِ، فأنا سأكون وليُّ أمركِ.

صمتت تأخذ أنفاسها، قبل أن تُلقي كلماتها كالقذيفة:

- أنا هكذا، فإن أردتَ الاستمرار فبها، وإلا فلا!

كان الصمتُ ثالثهما لثوانٍ، فقد صُعق **"محمود"** من أنانيتها! وقد كانت **"جيهان"** تملكُ من الغرور ما يكفي لجعلها واثقةً أنه سيختارها هي!

ولكن **"محمود"** بدد توقعاتها حينما قال بهدوء وهو يقف من موضعه:

- إذاً، هذا فِراقُ بيني وبينكِ!

شعرت هي بأن دلواً من الثلج قد سُكب فوق رأسها، وأنها سمعت صوت تحطّمٍ آتٍ من قلبها!
نظرت إلى حيث يقف نظرةً خاوية.. ثم وقفت هي أيضاً وقالت تُرمم كبرياءها، وهي تخلع خاتم الخِطبة:

- أعتقد أن هذا هو الأفضل!

ثم ألقت الخاتم بوجهه، وغادرت المكان..

استفاقت من ذِكراها وشهقاتها على تساؤل والدتها بقلق:

- **"جيهان"**، ما بكِ؟

جففت الأخرى دموعها بسرعة، فأكثر ما تكرهه أن يرى أحدٌ ضعفها.. أجابت على والدتها بـ"لا شيء"..
لم تقتنع الأم بإجابتها، خصوصاً أنها تحفظ ابنتها جيداً، وتعلم أنها لا تبكي إلا لأمرٍ جلل!

تركت ما بيدها على السرير، ثم جلست بجوار ابنتها وسألتها مرة أخرى بهدوء:

- أنا والدتكِ، لذا يجب عليك إخباري بما يزعجكِ حتى أستطيع مساعدتكِ.

ثوانٍ وانفلت زمام قوتها.. تساقطت دموعها وهي تقول بتقطّع:

- أفتقده يا أمي، أفتقد **"محمود"**.. لم أستطع بعدُ أن أتخلص من ذِكرى ابتعادنا.

ثم فجأة، هبّت من مكانها وصاحت بشراسة وغلّ:

- الفلاح! لا يحقُّ له رفضي.. أنا من يجب عليّ فعلُ ذلك!

كانت في حالة اضطراب بين الكُره والحُب، فلم تَدرِ لِما تقوله!

تنهدت الأم بقلة حيلة، ثم سألتها بهدوء:

- أعلم أن الوقت غير مُناسب، ولكن ألن تُخبريني بالسبب الحقيقيّ لافتراقكما؟

توترت، واضطربت حدقتاها.. فلمّا رأت لا فِرار من إخبار الحقيقة حتى باحت بها، وحكت ما حدث ذلك اليوم..

وقد كانت الأم تستمع لما تقول بذهول، لم تكن تعلم أن ابنتها أنانية وذات كِبرٍ هكذا! إن الرجل كان يُريدها أن ترتدي الحجاب، فخيّرته **"جيهان"** بينها وبين الحجاب!

تحدثت الأم وهي تتمالك نفسها عن الغضب:

- فاخترتِ أن تتركا بعضكما لأجل قطعةٍ من القماش؟ تُحبان بعضكما، ثم تُخيرينه بينكِ وبين الحجاب.. بالطبع حقه أن يختار تركَكِ!

اتسعت عينا الأخرى قائلة بعدم تصديق:

- ليست قطعةً من القماش، بل هو فِكر!

تمتمت الأم بسخرية: "جيدٌ أنكِ تعلمين".. ثم قالت لها بنفاد صبر:

- ولِمَ رفضتِ أن ترتدي الحجاب؟ هل أخبركِ هو بشيء سيء؟ لقد أراد أن تتعففي!

تحدثت **"جيهان"** بملل:

- هل صدّق نفسه وسيأمرني بشيء لا أُريده؟ إن أبي نفسه..

قاطعتها والدتها بحدة وهي تقوم من مجلسها:

- إن أباكِ نفسه دلَّلكِ أكثر من اللازم، ولقد حاولتُ معكِ أكثر من مرة في ذلك الموضوع، وكنتِ ترفضين!

ثم اتجهت للباب، ورحلت من الغرفة، صافعةً الباب خلفها!

تنهدت **"جيهان"** وهي تُخمد ضميرها بأن الله غفورٌ رحيم.. وقد نَسيت أنه أيضاً شديد العقاب!

*****

مرّت أيام العزاء، ولم تكن **"جيهان"** تخرج من غرفتها إلا لَماماً..
وفي اليوم الرابع، قررت أن تُنحّي هذا اليأس والبؤس وتنزل لتتمشّى قليلاً..

ارتدت بنطالاً ضيّقاً، وفوقه قميصٌ كحليّ.. وعقدت شعرها على هيئة ضفيرة، ثم خرجت من الغرفة ونزلت على السلم..

قابلت نفس الفتاة التي رأتها يوم جاءت هنا.. تأملت ملامحها لثوانٍ وأكملت سيرها..
حدثت نفسها أنها جميلة بحق، بغض النظر عن ملابسها المُعقّدة!
بشرتها القمحيّة، وعيناها العسليتان.. ثم تسائلت **"جيهان"** وهي تسير بهدوء: "يبدو أنها تمكث هنا قريباً، فأنا لم أرها آخر مرة جئتُها.. رُبّما كانت الخادمة، أو زوجة أحدٍ هنا"..

ارتدت سماعة الأذن، وأوصلتها بالهاتف ثم شغّلت أغنية عليه..
كانت تسير تارة..
وتلتقط صوراً للطبيعة أو لنفسها تارة أخرى!

*****

انتهى **"محمود"** من ارتداء ملابسه، ثم صفف شعره المُجعّد.. ومسح على لحيته نصف النامية ليُهذّبها..

خرج من الغرفة، فقابل والدته.. قبّل رأسها، ثم أكمل طريقه..
طرق الغرفة، حيث جدّه.. فأُذن له.. سلّم على خاله وزوجتي أخواله الجالسين، ثم قال بهدوء:

- جدّي، سأذهب للعمل هل تريد شيئاً؟

نفى الآخر برأسه بفتور، ثم عاد لصمته مرة أخرى.. نظر الجميع له بحُزن، فهكذا هو مُنذ وفاة ابنه الأكبر..
تبادل نظرة صامتة مع الجُلوس ثم كاد يخرج حتى سمع مُناداة زوجة خاله -رحمه الله-..

انتحت به جانباً، ثم همست بأذنه:

- إن كنتُ حزينة على وفاة زوجي، فقلبي يحترقُ على منظر والده!

فلتجلس أنتَ و**"جيهان"** معه، إنه يُحبكما فأنتما حفيداه الوحيدين!

عقد حاجبيه، وكاد يفتح فمه ليعترض، ولكنها قاطعته بأمرٍ وثبات:

- أنتَ و**"جيهان"**، كلٌّ منكما يتجاهل ما يحدث حوله، وينأى جانباً! بعد عودتكَ من العمل ثم الغداء ستجلسان معه وتُلهيانه عن هذا الحُزن!

ثم تركته عائدةً إلى حيث تجلس.. ظلَّ واقفاً مكانه لثوانٍ، قبل أن يتحرك نحو الخارج مُفكّراً بحديث زوجة عمه الراحل..

وما كاد يخرج من البوابة الداخلية، حتى رآها تسير ذهاباً وإياباً بثيابها الضيّقة.. اشتعل الغضب بصدره، فغضّ طرفه سريعاً وأسرع خُطاه ناحيتها..

- **"جيهان"!**

صاح بها بغضب حاول كبته.. التفتت له عاقدةً حاجبيها، وما إن رأته يُبعد نظره عنها حتى نمت بسمة ساخرة على فمها.. سألته ببرود:

- هل تريد شيئاً؟

نظر لحارس البوابة الخارجية قائلاً لها بحدة حاول السيطرة عليها:

- كيف تسيرين بتلك الملابس الضيّقة أمام الرجال.. لستِ في (القاهرة)، أنتِ هنا في (الصعيد)!

لوهلة شعرت بقلبها ينبض لغيرته.. ولكنها قالت بعدم اكتراث خارجيّ:

- أولاً، أعتقد أنكَ أكثر من تعلم بأن هذه طريقة ارتدائي للملابس، لن أغيّرها لأجل أحد.. ثانياً، وما شأنكَ أنتَ؟!

كانت تحسب أنه سيُجيبها إجابة رقيقة كـ"أنتِ شأني!"، ولكنه أجابها بهدوء:

- كنتِ تريدين أن أُعاملكِ كابنة خالي.. لذا، ها أنا ذا أفعل..

ثم أقول، هداكِ الله! فلا أنتظر منكِ أن تغيّريها لأجل أحد، بل لأجل خالقِ كلّ أحد!

هزّتها إجابته الأخيرة من الداخل، لم تشعر من قبلُ بتلك الرجفة الناجمة عن الخوف والتوتر..

سألته تنفض ذاك الشعور:

- أعتقد أنكَ لم تتجشم عناء السير لتقول هذا الكلام فقط!

ابتسم بهدوء، جاعلاً قلبها يُقيم حفلاً صاخباً لتلك الابتسامة.. تحدث بهدوء، بينما هي لم تسمع حرفاً من كلامه.. كانت تجول بعينيها على ملامح وجهه!

عيناه السوداوتان المكحولتان، شعره الأسود المحلوق، طوله الفارع حتى بالنسبة لها وهي ليست قصيرة..

حمحم يجذب انتباهها، فاستفاقت من تأملها.. ابتسمت بحرج قائلةً:

- معذرة لم أكن مُنتبهة لما تقول، هل يمكنكَ إعادة حديثكَ؟

هزّ رأسه بيأسٍ، قائلاً بجدية:

- بعدما أعود من عملي، وبعد الغداء سنصعد معاً لنجلس مع جدّي.

ثم رفع إصبع السبابة بوجهها وأكمل:

- وحذارِ أن تتحدثي بكلامٍ سيء، أو حتى قَول شيئٍ قد يُفضي لشِجار.. سنجلس معه لنُسري عنه بعض ما ألمَّ به!

وتركها ذاهباً للمدرسة حيث يعمل..

*****

وقت الغداء.. كانت **"جيهان"** تجلس على طاولة الطعام بجانب والدتها تنتظر الباقين..

خمس دقائق، وكان جدّها ينزل بهدوء على السُّلم ويُساعده **"محمود"** على السير..
بعد جلوس الجدّ على مقعده على رأس الطاولة، تابعت **"محمود"** بعينيها، فرأته يجلس بجوار تلك الفتاة التى رأتها أكثر من مرة.. عقدت **"جيهان"** حاجبيها، وقد بدأت الشكوك تفعل أفاعيلها بعقلها، وقلبها!

لم تكن **"جيهان"** مُنتبهةً أنها تُتابعهم بعينيها، وقد شعر **"محمود"** بذلك ولكنه تجاهلها كُلياً، ثم قرّب أذنه من الفتاة التي بجواره وهمس لها بشيء.. فابتسمت..

كانت **"جيهان"** ويكأنها تجلس على مقعدٍ ساخن.. كانت الأحداث تؤكد لها ما تشكُّ به، ولكنها تُكذّب عينيها وعقلها.. دقيقة وكانت تهمس لزوجة عمها الجالسة بُقربها، بصوتٍ وصل للجميع:
- المعذرة، ولكن من هذه الفتاة؟
كادت تُجيبها، ولكن أجاب **"محمود"** بهدوء:
- إنها زوجتي.. **"فاتن"!**

توقف الزمن بالنسبة لها على تلك الجُملة.. "زوجته! متزوج! زواج!" عباراتٌ تدقُّ كالطبول داخل عقلها..
وقلبها الذي تهشّم للمرة الثانية من قِبَله! تلبّستها حالةٌ من اللامُبلاة، ولم تكن تتصنّعها في الواقع ولكنّ سقف آمالها قد انهدّ على رأسها..
اغتصبت ابتسامة، قائلةً لهما:
- مُبارك!
ثم دفعت كُرسيّها بهدوء وهي تُتمتم: "الحمد لله"..

ولم يكن **"محمود"** بأفضل حالٍ منها، إذ أنه قال ما قال وهو يعلم أنها ستُصعق، ولكن هل سيظل أمر زواجه خافياً عليها؟ ستعلم، بل كان يجب أن تعلم.. حتى تتوقف حِبال تطلعاتها إن وُجدت..
أكمل طعامه بشرود، ثم رأى قطعةً من الدجاج توضع في طبقه.. نظر لزوجته وابتسم بهدوء..

*****

دخلت الغرفة مُغلقةً الباب خلفها، ثم جلست على السرير بهدوء تُحسد عليه، على عكس قلبها الذي تشعر بألمٍ حارقٍ به.. ودموعها التي تنزل ساخنة..
في الحقيقة لم تكن تتصنّع الهدوء، ولكن بعض الحقائق إن كانت صادمة جداً تولّد شيئاً من اللامُبالاة..
لم تَلُم أحد، على غير عادتها بإخراج نفسها من المشاكل.. ربّما لامت نفسها على رفعِها لسقف الآمال والتطلّعات حتى صُدمت بالواقع الذي لا بُد منه!

ومع حُزنها، ظهرت لها الحقيقة بكلّ سفور، وبلا أي مُجاملات.. ماذا كانت تأمُل؟ أن يعود إليها راجياً قُربها! أم يُظهر أسفه الشديد على فِراقها!

تراءى لها حديث والدتها.. "هل أخبركِ هو بشيء سيء؟ لقد أراد أن تتعففي بالحجاب".. إن عادت لذاك اليوم، سترى أنها هي من خيّرته.. بالأحرى خيّرته بين الدنيا والآخرة، وما كان عليه إلا أن يختار الآخرة..

قررت النوم بعد كل تلك الأفكار لتُريح عقلها، وحتى تستطيع أن تُنظّم أفكارها وما يجب أن تفعله لاحقاً..

*****

دخل **"محمود"** غرفته مع زوجته، فجلست **"فاتن"** على السرير بينما هو يُخرج ثياباً منزلية ليرتديها.. نظر ناحيتها فشعر أنها تُريد شيئاً.. سألها مُبتسماً:
- أرى على وجهكِ علامات التساؤل، أخبريني؟
ترددت، قبل أن تُجيبه:
- لا أعلم حقاً ولكن، تصرفاتكَ منذ جاءت تلك الفتاة غريبة.. كثيراً ما أراكَ شارِداً، واليوم على الغداء عندما عرفتْ ابنة خالك أنني زوجتك، لم تُكمل طعامها وأنتَ أيضاً لم تأكل بشهية!

ابتلع ريقه بتوتر، لم يعلم أن زوجته نبيهة هكذا.. ورغم ذلك اقترب حتى جلس جوارها، ووضع يده على كتفها مُجيباً بابتسامة هادئة:
- أعتقد أنكِ ربطتِ أشياء ببعضها، وهي في الأصل لا يوجد بينها رابط.. لا تقلقي، فقط موت خالي كان ثقيلاً عليّ وبعض المشاغل في العمل لا أكثر!

شعرت أن إجابته مُلتوية، فأصرّت قائلة:
- لا تُعجبني إجابتك.. باختصار يا **"محمود"**، هل تُكنّ مشاعراً لتلك الفتاة؟
قام من مكانه صارخاً بغضب:
- ما الذي تهذين به؟! لا يوجد شيءٌ كهذا!

شعرت بالخوف من مظهره، وآلمها قلبها بسببه!
فتلك أول مرة يصرخ بها هكذا.. حتى عندما يتشاجران لم يصل الأمر حدّ الصراخ!

نزلت دمعة من عينيها، فمسحتها بقوة واتجهت ناحية الباب لتخرج من الغرفة، صافعةً الباب خلفها!

أما هو، فجلس على السرير بعُنف ماسحاً على رأسه بأسى..
لم يصرخ عليها لغضبه منها، بل كان غاضباً من نفسه..
لماذا ما زال قلبه ينبض كلما رآها أو ذُكر اسمها؟ يدقُّ بتسارعٍ بسيطٍ نعم، ولكن ويكأنه يُذكّره بها!

زفر الهواء بتعب، يجب عليه أن يُصالح زوجته فلا ذنب لها لتلك العصبية..
خرج من الغرفة ليراها أين ذهبت، فقابل والدته مُتجهةً إليه بغضب.. حيّاها بفتور فأمسكت ذراعه قائلةً بقوة:
- هل يوجد رجلٌ يُخرج غضبه في نساء بيته؟
نظر بعيداً، وقبل أن يتحدث أكملت هي:
- لم تُخبرني **"جيهان"** شيئاً، أنا من كنتُ مارةً بالغرفة فسمعتُ صُراخك بها.
هزّ رأسه وقال بخفوت:
- كنتُ مُنفعلاً، ولم أشعر بنفسي!

تركت ذراعه وقالت بحسمٍ، قبل أن ترحل:
- الرجل الحقّ هو من يُملك زِمام نفسه عِند الغضب..
والرجل الحقّ لا يُهين نساء بيته بكلمةٍ أو بفعلٍ!
رحلتْ، فأكمل هو طريقه يبحث عنها..

وبعد دقائق، وجدها تجلس في غرفة المعيشة أمام التلفاز بملامح وجه فاترة..
آلمه قلبه، فهو لا يُحب إحزانها!

اتجه إليها ببطء ثم جلس جوارها، فلم تُعِره أي انتباه.. نظر حوله، حتى تأكد من عدم وجود أحدٍ في الجِوار فاقترب مُقبّلاً جانب رأسها وهمس:
- أنا آسف! لم أقصد أن أصرخ عليكِ، لقد كان عقلي مشغولاً بالكثير من الأمور.
ابتسمت بتهكم قائلة:
- لستُ كيس مُلاكمة، إذا ما أردتَ أن تُفرغ غضبكَ كُنتُ أنا الضحيّة!
ولم تستطع تمالك نفسها، فأجهشت ببكاءٍ حاد!
شعر **"محمود"** بقلبه يؤلمه، فاحتضنها ليحتويها ويأوي لرُكنه الآمن!

ظلّ يُربّت على ظهرها يُهدّئها، بينما تحدثت **"فاتن"** أثناء شهقاتها:

- أنتَ لم تصرخ عليّ هكذا من قبل! ألأجل قريبتكَ تلك؟

ضمّها لصدره أكثر وقال مُعاتباً:

- أعلم أني أخطأتُ.. أقسم أني آسف، ولكني لم أتصوّر أنكِ تتهمينني!

ساد الصمت لثوانٍ، قبل أن يتحدث **"محمود"** مرة أخرى:

- هلّا سامحتِني إذاً!

ابتعدت عنه قليلاً، ثم نظرت إليه وأومأت برأسها بالإيجاب..

اتسعت ابتسامة **"محمود"** قبل أن يقف من مكانه ويُقبّل رأسها قائلاً:

- سأذهب لأُصلّي العصر، ثم نصعد أنا وأنتِ و**"جيهان"** لنجلس مع جدّي قليلاً.

عبست قليلاً إثر ذكره لاسم **"جيهان"**، فأكمل مُسرعاً:

- أقسم أن هذا أمر زوجة خالي، قالت لي أن جدّي يحتاج إلينا لتجاوز حُزنه!

تنهدت باستسلام، وأومأت برأسها بالإيجاب..

*****

بعد انتهائه من الصلاة، قابل خاله فعادا للمنزل سوياً.. وقبل أن يصعد والد **"جيهان"**، نادى **"محمود"** عليه وأخبره بحرج:

- هل يمكنك أن تُنادي على **"جيهان"**؟ من المفترض أننا سنجلس قليلاً مع جدي كما أخبرتُها.

نظر إليه والدها بشك، ولكنه أومأ برأسه بالإيجاب.. كاد يصعد على السلم، ولكنه تفاجأ بها واقفة قبل أن تقول بهدوء:

- أعتقد أنني مستعدة.. أين **"فاتن"** حتى تجلس معنا؟

ثوانٍ، وجاءت المعنيّة وهي تنظر لزوجها بلا تعبير.. اتسعت ابتسامة **"جيهان"**، واتجهت لها وقالت بمرح وهي تصعد معها السلم:

- لماذا أنتِ واجمة؟ لا تخافي، أريد أن نتعرف سوياً.. فيبدو أنني بدأتُ أحبكِ.

غابت عن ناظرهما، بينما ينظر لها **"محمود"** ووالدها بدهشة وتعجب!

والدها يعلم أنها لم تكن ودودة بهذا القدر، أما الآخر فهو لم يتوقع كل هذا الترحيب.. أم أنها قد جُنت!

نظر والدها لابن أخته، فرفع **"محمود"** كتفيه بلا إجابة، ثم صعد ليتبعها قبل أن تُسبب **"جيهان"** كارثة.. فهو أكثر من يعلم لسانها!

وصل أمام غرفة جده، بينما يسمع ضحكاتهما معاً.. ارتفع حاجباه بدهشة، طارقاً الباب بهدوء قبل أن يدخل..
خبتت الضحكات، باستثناء ابتسامة متسعة على وجوه الجميع.. وبلا استثناء!

نقل بصره بين جده والفتاتين بذهول، واقترب مُقبلاً يد جده ورأسه بأدب وجلس عند قدمه على السرير قائلاً بابتسامة هادئة:

- أرى أنكَ استعدتَ عافيتكَ.

ابتسم الجدّ ناظراً لحفيدته وقال:

- الحمد لله..

ثم أكمل وهو يضحك بخفة:

- والفضل بعد الله يعود لـ**"جيهان"**، كانت تحكي لنا عن ذكريات طفولتها.. البريئة!

قال آخر جملة بسخرية مُضحكة، فعادت ضحكات الجميع تصدح في الغرفة، باستثناء **"محمود"** الذي لم يفهم شيئاً فاكتفى بابتسامة هادئة..

بعد دقائق، نظرت **"فاتن"** نحو زوجها وقالت بابتسامة:

- لقد أصبحتُ و**"جيهان"** صديقتان.

اتسعت عيناه، وارتفع حاجباه بذهول.. نظر ناحية **"جيهان"** بارتياب، فقابلته بنظرة بمعنى "لا تقلق".. ولكنه لا يزال قلِقاً، يخافُ أن تقول لزوجته شيئاً مُريباً يُفسد علاقتهما!

وقف **"محمود"** من مكانه مُستأذناً بحُجة تركهم على راحتهم، فقد اطمأن على صحة جده ولله الحمد..

خرج من الغرفة والمنزل بأكمله، ثم اتجه ناحية الأريكة التي تقبع داخل الحديقة وجلس عليها.. نظر بشرود إلى الشمس التي بدأت رحلة ذهابها من هذا المكان، لمكانٍ آخر ما زالت لم تذهب له..

بينما هي، نظرت له من بعيد قبل أن تتجه إليه لتتحدث معه.. جلست على الكرسي أمامه ثم بدأت حديثها قائلة:

- لا تقلق عليها!

عقد حاجبيه ناظراً لها بعد فهم، تنهدت **"جيهان"** ثم أعادت كلامها بهدوء:

- أقصد زوجتك، **"فاتن"**! رأيتُ نظرة قلق بعينيكَ اليوم وهي معي.. قد تظن أنني سأفعل شيئاً لأُفسد علاقتكما معاً، ولكني لستُ بهذا القُبح!

ثم نظرت ناحية السيارات المصفوفة وأكملت حديثها بشرود:

- رُبّما كُنتَ مُهماً لي ذات يوم، ولكني لستُ تلك المرأة التي تبني حياتها على هدم حياة الآخرين!

ثم وقفت من مكانها وحيّته برأسها، فقال **"محمود"** قبل أن ترحل:

- شكراً!

نظرت له لثوانٍ، قبل أن ترحل بهدوء..

ذهبت لغرفة والدها.. طرقت الباب فسمعته يأمرها بالدخول، فتحت الباب فوجدته يجلس أمام التلفاز يُتابع مُباراة، بينما والدتها تجلس بجانبه، تتصفح الهاتف.. سلمت عليهما، ثم جلست على السرير بجوارهما وقالت بسؤال أقرب للرجاء:

- أبي، متى سنرحل؟

نظر إليها بطرف عينه، قبل أن يُجيبها وهو يُكمل المُشاهدة:

- لم أُقرر بعد، ولكني أظن أن الأجواء هنا مُريحةٌ للأعصاب.

ابتعلت ريقها بتوتر، قبل أن تقول بتردد:

- أعني أنني أريد أن نعود لمنزلنا، أعتقد أني لستُ على راحتي هنا!

زفر والدها أنفاسه بضيق، ثم قال ببرود:

- لا أعلم.. والآن دعيني أُكمل المُباراة!

شعرت بالضيق من ردّ والدها، ففهمت والدتها ما يدور بذهنها فهمست لها بهدوء:

- لا تحزني، هو لا يقصد ذلك.. فقد كان موت أخيه صعباً عليه.. كما أنه لا يرغب بترك جدكِ!

تبدد الحزن فوراً من قلبها، وحل محله الشفقة.. فهزت رأسها مُتفهمة ثم حيّتهما لتذهب لغرفتها..

وفي طريقها للغرفة، قابلت **"فاتن"** وهي عائدة من مكان ما.. حيّتا بعضهما وقالت لها بابتسامة واسعة:

- ما رأيكِ أن نستعدّ لصلاة المغرب، ثم نجلس سوياً لنشاهد شيئاً ما؟

شعرت **"جيهان"** بالتوتر من جملتها، واقشعرّ بدنها.. فقد أضحت منذ فترة لا بأس بها مُقصّرة في صلاتها، وقد يمرُّ يوم أو أكثر ولم تُكمل فروضها!

أومأت برأسها بالإيجاب بهدوء، وقالت بخفوت:

- إذاً لنذهب لغرفتي!

وبعد أن دخلتا غرفة **"جيهان"**، قالت الأخرى بابتسامة:

- هل أنتِ متوضئة؟ إن آذان المغرب قد اقترب.

شعرت **"جيهان"** بالحرج من نفسها، فأجابتها بسرعة واضطراب:

- أعتقد أنني سأحتاج لتجديد الوضوء!

ثم تركتها وذهبت لتتوضأ.. وبعد خمس دقائق، خرجت من الحمام بابتسامة مُحرجة، ويكأنها طفلٌ يتعلم لأول مرة!

لاحظت **"فاتن"** هذا الأمر، فأسرعت تقول بابتسامة:

- سأذهب لأجلب لكِ إسدالاً للصلاة!

جلست **"جيهان"** على السرير بفتور، تفكر في كثير من الأحداث وتحللها..
تُفكر في كم أن **"فاتن"** لطيفة وطيبة، وبلا مُقابل..
تُفكر في أنه يجب عليها تغيير طريقة تعاملها وفهمها للأمور، وأنه يجب عليها أن تُعطي عُذراً لمن تُحبهم، وأن تفهم منهم بوضوح لِمَ كان رد فعلهم بهذا الشكل**!**

وبينما هي هكذا، إذ جاءت **"فاتن"** بإسدال الصلاة..
فأخذته منها شاكِرة، ثم ارتدته..
نظرت إليها الأخرى بابتسامة مُتسعة وبتأثر، ثم قالت لها:
- تبارك الله**!** لقد زادكِ الحجاب وقاراً**!**
التفتت **"جيهان"** تنظر لنفسها بالمرآة..
بالطبع قد أخبت الحجاب جزءاً من جمالها، ولكن أضفى على هيئتها وقاراً وهدوءاً..
ساءلت نفسها **"لمَ لا؟!"** قبل أن يصدح آذان المغرب..

لا تُنكر أنها شعرت برجفة داخل قلبها، ويكأن الخِطاب موجهٌ لها تحديداً**!**

*****

مرّ أسبوعٌ آخر عليها، كانت قد اعتادت على مكوثها بالمكان، بل والتعامل والخروج..

وذات يوم، كانت تقف بالمطبخ تُساعد **"فاتن"** بتحضير الغداء.. فجأة، وجدت الأخرى تركض خارج المطبخ.. تركت **"جيهان"** ما بيدها وأسرعت خلفها، حتى سمعت صوتها بحمّام الضيوف.. كانت تستند على الحائط أمام الحوض تُفرغ ما ببطنها.. كان صدى الصوت عالٍ لدرجة تجمع أغلب من بالبيت حولها..

غسلت **"فاتن"** وجهها، ثم نظرت ناحية النساء و**"جيهان"** المذعورة..
كان أول من تحدث والدة **"محمود"** قائلة بهدوء:

- هل يمكنكِ يا **"جيهان"** أن تذهبي للصيدلية لجلب اختبار حملٍ حتى نتأكد؟

أومأت برأسها بالإيجاب بهدوء، ثم ذهبت بمشاعر متناقضة.. تشعر بالضيق لأنه ربّما سيُرزق بطفلٍ من امرأة أخرى، وبالسعادة لأن صديقتها سيكون لها طفلاً..

بعدما عادت للمنزل، وأعطت الاختبار لـ**"فاتن"**.. مرت فترة قبل أن تخرج الأخرى من حمّام غرفتها بملامح وجه سعيدة..

انطلقت زغاريد من والدة **"محمود"** بالطبع، واكتفت زوجة عمها الأخرى ووالدتها بالمُباركة بفرح..
ابتسمت **"جيهان"** بسعادة، قبل أن يسمعن طرق باب الغرفة..
دخل **"محمود"** الغرفة، قائلاً بابتسامة هادئة كعادته:
- ألا يُمكنني معرفة ما جعلكنّ سعيدات هكذا؟
اقتربت منه **"فاتن"** وأظهرت أمامه نتيجة اختبار الحمل..
عقد حاجبيه بعدم فهم، فتحدثت والدته بسعادة بيّنة:
- زوجتكَ حامل! ستُصبح أباً عما قريب!

لم يظهر على وجهه سوى الصدمة والذهول.. إلى أن استوعب ما قيل، فتمرّدت دمعة من عينه ونظر لزوجته بتأثر.. ثم اقترب منها مُقبلاً رأسها بابتسامة واسعة!

كانت **"جيهان"** تتابع ذلك المشهد بسعادة، ولا تستطيع إنكار ذلك.. الآن فقط فهمت لِمَ عرضت زوجة عمها -رحمه الله- عليه أن يتزوج ليُنجب من غيرها.. مع اختلاف الظروف بالطبع، إلا أنها فهمت أن من يُحب حقاً سيسعد بسعادة محبوبه.. ولأن **"جيهان"** تُحب **"محموداً"** فهي قد أسعدها رؤيته فرِحاً!

*****

بعد ثلاثة أشهر.. كانت **"جيهان"** جالسةً بغرفتها، تتصفح هاتفها بملل ورتابة.. سمعت طرق الباب، فأخبرت الطارق أن يدخل..
رأت **"فاتن"** وقد ارتدت ملابس للخروج، فسألتها بابتسامة مُحرجة:
- هل ستذهبين لمكانٍ ما؟
أجابتها الأخرى بمرح:
- أجل، سأذهب لشراء ملابس للصغير.. ما رأيكِ أن تأتي معي؟
اتسعت ابتسامة **"جيهان"** ونبض قلبها بسعادة لذاك الرضيع الذي اقترب موعد مجيئه.. هزت رأسها موافقة، ثم أخبرتها أن تنتظرها حتى ترتدي شيئاً..

خرجت لصديقتها بعد ربع ساعة، وهي ترتدي ملابس خريفية، بعد مُراعاتها أنها ليست في (القاهرة)!
بدأتا بالسير، فسألتها **"جيهان"** بابتسامة وهي تُلقي نظرة على بطنها المُنتفخ:
- إذاً، كم اقترب على الموعد؟
أجابتها **"فاتن"** بمرح:
- لنقل أني في بداية الشهر الخامس.. أظن أنه مُتبقٍ أربعة أشهر أو أقل قليلاً.

أمسكت بيدها لتسيرا معاً، فوجدتها تتجه نحو البوابة بثقة..
سألتها **"جيهان"** وهي تعقد حاجبيها:
- لماذا نسير؟ يُمكننا أن نذهب بالسيارة، فأنا أستطيع القيادة

أكملت الأخرى سيرها وهي تقول بابتسامة:
- لا حاجة بنا للسيارة، فالمكان قريبٌ من هنا!

وجدتها تنظر لها ولبطنها بقلق، فابتسمت قائلة:
- لا تقلقي، ما زلتُ في أوائل الحمل!

بعد ربع ساعة من السير، وصلتا لمتجر لبيع ملابس الأطفال..
نظرت **"جيهان"** للملابس الصغيرة المعروضة وألعاب وأدوات الأطفال، بقلبٍ يقرع بسعادة وفرح..
فعلاً، رؤية الأطفال وما يخصهم لكفيلٌ بصرف الطاقة السلبية..

رأت **"فاتن"** وهي تُمسك بيدها لِباساً صغيراً، باللون الرمادي.. رفعته أمام الأخرى وسألتها بابتسامة واسعة:
- ما رأيكِ به؟ إنه لطيفٌ للغاية!

ابتسمت **"جيهان"** على سعادتها، وأجابتها:
- فعلاً هو لطيف، مثلكِ وصغيركِ!

ظلتا لمدة ساعة تختاران الملابس وأدوات النظافة بسعادة وحُب..
خرجتا من المحل، بابتسامة هادئة.. ثوانٍ وقالت **"فاتن"** بحماس:
- هل تُحبين المُثلجات؟
نظرت لها الأخرى بعيون مُتسعة، قائلة بتردد:
- نعم أُحبها، ولكن..
أعطتها **"فاتن"** الكيس الذي بيدها، وقاطعتها قائلة بحسم مصطنع:
- لا يوجد "لكن"، انتظريني هنا وسأذهب لشرائها من هذا المتجر.
ثم تركتها مُتجهة لتعبر الشارع بهدوء..
وقفت **"جيهان"** بانتظارها، بينما تتفكّر في صداقتها مع **"فاتن"**..
لم تعثر على صديقة بمثل نقائها وحُبها للغير، كما أنها في جلساتهما معاً، لم تُفشِ سراً من أسرار بيتها، أو تتحدث بكلمةٍ -ذماً كان أم مدحاً- على **"محمود"** زوجها مُطلقاً..
على عكس الكثير من الفتيات اللاتي كانت تجلس معهن!

نظرت للمتجر، فرأتها تخرج منه وابتسامة هادئة على ثغرها.. نظرت **"فاتن"** يميناً ويساراً، ثم بدأت تعبر بخُطىً

أقرب للسرعة.. وما كادت تقترب من موقع **"جيهان"**، حتى فاجأتها دراجة بخارية مُسرعة، يقودها صبيّ مجنون!

تمّ الأمر في ثوانٍ، وأمام عيني **"جيهان"** المصدومة..
رحلت الدراجة بعيداً، تاركةً جسداً مُلقىً على الأرض والدماء تنزف من تحته..
ركضت بسرعة نحو **"فاتن"** والدموع تجعل رؤيتها مشوشة!

اجتمع كثير من الناس حولهما، منهم من يضرب كفاً بكف.. ومنهم من يسبّ السائق على جنونه وتهوره، بينما **"جيهان"** تحاول الاتصال بـ**"محمود"**، وتُهدئ **"فاتن"** التي تبكي بتألم..
لم تستطع الوصول لهاتفه، فقد كان مُغلقاً.. نظرت لإحدى النسوة وقالت لها مُسرعة برجاء:

- أرجوكِ ساعديني حتى نذهب بها لأي مشفى قريب.. إنها حامل!

ساعدتها، وتعاونت معها اثنتان، بينما صاح رجل في منتصف العمر:

- سأوصلكم بسيارتي، هيا بسرعة!

صعدوا للسيارة جميعاً، وانطلق الرجل بها بسرعة.. بينما **"جيهان"** ما زالت تُحاول على هاتف **"محمود"**..

أجاب أخيراً، فصاحت بسرعة وصوتٍ باكٍ:
- **"محمود"!** أرجوك تعالَ بسرعة على مشفى ( ).
انقبض قلبه، وأخبرها أن تقول له ما حدث بسرعة.. وذهب للاستئذان من مديره وانطلق بسرعة..

وصلت السيارة التي تُقل **"جيهان"**، فأسرعت تُساعد صديقتها وهي تُنادي على ممرضة لتُنجدها.. شرحت لهم **"جيهان"** حالتها بسرعة وتلعثم، ثم جلست على الكرسي بإرهاق وقلبٍ قلق..

وصل **"محمود"** بعدها بعشر دقائق، فوجدها تجلس على الكرسي أمام غرفة الطوارئ.. اقترب منها فوجدها تبكي بشدة.. لم يستطع التحدث بشيء، فجلس على الكرسي المُقابل يدعو الله أن يحفظ زوجته وابنه له..
مرت ساعة كاملة، قبل أن يجدا الباب يُفتح وتخرج منه مُمرضة بفتور.. انقبض قلبهما معاً، وقبل أن يتحدث أحدٌ منهما سألت المُمرضة بخفوت:
- هل تعرفان الفتاة التي بالداخل؟
أومأ الاثنان لها بسرعة، فأجابت بفتور وحزن:
- البقاء لله! لقد تُوفيت الأم بعد موت صغيرها!

صرخت **"جيهان"** ببكاء، ثم أُغمي عليها بعدم تصديق!

أما **"محمود"**، فظلّ مكانه غير مُصدق ثم ركض للحجرة بدموعٍ تنهمر على خديه!
دخل الحجرة فوجدها، مُغطاة بملاءة..

مد يداً مُرتعشة يُزيل الغطاء عن وجهها، ثم سقط على ركبتيه بجوار رأسها..
رؤيته لها بذلك الوضع، أشعرته أن قلبه يوشك على التفتت!
مسح دموعه، ثم نظر لها بانكسار وهمس بابتسامة وهو يمسح على رأسها:

- رحمكِ الله يا حبيبة! أَلِتلك الدرجة اشتقتِ للجنة؟! ثم ماذا؟ أخذتِ ابننا معكِ وتركتِني هنا، وحدي!

ثم قام وقبّل رأسها مُطولاً، وقال ببكاء:

- أسأل الله أن ألحق بكِ على خير.. لقد أحببتكِ، وسأظلُّ أتذكركِ!

ثم خرج من الغرفة، فقابل **"جيهان"** التي قالت له بحزن:

- أنا آسفة، لم أُحافظ عليها كما يجب! ليتها لم تعبر الشارع!

ثم أجهشت في بكاءٍ حارق، فقد كان قلبها يؤلمها على فِراق صديقتها..

تحدث **"محمود"** بفتور:

- لا بأس، هذا قدرها.. ثم إنها بإذن الله شهيدة!

ومضى بكتفين مُتهدّلين، وقلبٍ يحترق، لُيتمم على إجراءات خروج زوجته من المشفى!

*****

مرّ أسبوع على ذلك اليوم، الذي تغيرت بعده **"جيهان"** كثيراً..

ارتدت الحجاب كما يجب، بعدما رأت أن الموت لا يُفرّق بين شابٍ وعجوز.. بدأت في المواظبة على صلواتها، وهكذا في باقي الفروض التي كانت تُقصّر فيها!

وفي صباح يوم الجمعة، استيقظت باكِراً بابتسامة هادئة، فقامت لتغسل وجهها ثم ارتدت إسدالها وقررت الخروج للحديقة قليلاً..
مرّت على والدتها المُستيقظة، فسلّمت عليها ثم أكملت طريقها..
وجدت **"محمود"** جالساً على الكرسي، يُمسك المُصحف بيده ويقرأ بصوتٍ هادئ..
جلست هي الأخرى على الأريكة، ثم بدأت قائلةً بهدوء:
- هل تعلم أني رأيتُ اليوم **"فاتن"** في حُلُمي؟
انتبه لها، فابتسم وقال بحماس:
- قُصّيه عليّ!
أخبرته أنها رأتها تبتسم باتساع، ومعها ابنها الصغير.. وقد كانا جميلين..

فلم تستطع **"جيهان"** التحكم بدموعها التي تنزل، وهي تحكي بكل حُب.. كانت تتمنى أن تعود ثانية للحلم حتى تحتضنها..

مرت دقيقة، حتى سألته وهي تُكفكف دموعها:

- هل كُنتَ تُحبّها؟

نظر إليها لثوانٍ، ثم أجابها بشرود:

- لا أعلم تعريف الحُب بالنسبة لكِ، ولكني بالطبع أحببتُها.. يكفي أنها أحبّتني، وكان ينمو بداخلها فلذة قلبي.. معها عرفتُ معنى أن تُحب شخصاً، ومعي عرفَتْ هي معنى أن تُقدّر ذاك الحُب.

ثم نظر بعيداً وأكمل:

- الحُب مع **"فاتن"** كان تضحية من الطرفين للوصول للسعادة.. السعي وراء إرضاء الآخر، ما لم يتعارض مع رضا الله..

الحُب مع **"فاتن"** كان عطاءً وحناناً مُتبادلاً.. والحرص على إبقاء الأنانيّة والنديّة جانباً.. وأن تحتوي الشخص حتى في أحلك نوبات غضبه.

ساد الصمتُ بينهما، ولا يُسمع إلا صوت زقزقة العصافير.. تفكّرت **"جيهان"** في حديثه بتعقّل، إن علاقة الخِطبة التي ربطتها مع **"محمود"** في السابق كانت تفتقد لتلك الأشياء..

كثيراً ما كانت لا تحترمه، كانت أنانية.. ودائماً مُتحفزة تجاهه..

*****

مرّت سنة، حدثت بها الكثير من الأحداث.. منها عودة عائلة **"جيهان"** إلى (القاهرة) مرة أخرى..

وفي يومٍ، كانت واقفة بالمطبخ تُساعد والدتها بعمل الغداء..
أتى والدها وقال بهدوء:
- ستأتي أختى اليوم بإذن الله.
فأومأت له الأم بابتسامة، بينما **"جيهان"** حاولت شغل نفسها بتقليب الطعام.

بعد ساعتين، كانت عمة **"جيهان"** قد وصلت، ومعها **"محمود"**.. رحّبوا بهم، ثم ذهبت الأم وابنتها لوضع الطعام..
وبعد انتهاء الطعام، جلسوا جميعاً يحتسون الشاي ويتحدثون.. حتى حمحم **"محمود"** وقال بحرج:
- خالي، هل يُمكنني أن أطلب منكَ خِطبة **"جيهان"؟**
صُدموا جميعهم، وكان أكثرهم صدمة ودهشةً تلك المعنيّة بالأمر..
وقبل أن يتحدث أي أحد، وضعت **"جيهان"** كوب الشاي على الطاولة ثم قالت بهدوء:
- أنا آسفة، ولكنني لا أقبلُ!

شعر والدها بالحرج الشديد من أخته وابنها، بينما شعر **"محمود"** أنّ دلواً من الثلج قد سُكب على رأسه..
حمحم بحرج ماسحاً على رأسه قبل أن تتولى والدته الأمر قائلة لأخيها ببساطة:

- لا بأس، دعنا نتركهم ليتحدثوا قليلاً!

قام والد **"جيهان"** ومعه زوجته وأخته ليجلسوا في الغرفة المُقابلة، تاركين الشابَين يتحدثان..
كانت **"جيهان"** تنظر للأرض بحرج وحزن.. وهي على يقين بأنها لم تتسرع بإجابتها..
نظر **"محمود"** لها، وتنهد قائلاً بهدوء:

- نحن الآن في رؤية شرعية، لنتناقش بهدوء.. أريد أن أعرف لماذا ترفضين؟!

ابتلعت ريقها، وهي تفرك يديها ببعضهما لتكبح رغبتها في البكاء.. تحدثت أخيراً بصوتٍ مُختنق:

- و**"فاتن"**؟! هل نسيتها بتلك السرعة لتتزوج أُخرى؟! أم انتهزت فُرصة وفاتها؟! أين كلامكَ عن حبكَ لها وتقدير ذلك الحُب! أصبح يذروه الرياح!

أنهت كلامها باكيةً بحدة، ونشيج.. آلمه قلبه من منظر بكائها، ومن تذكُّره لزوجته..

قال يُدافع عن نفسه، بغُصة تجتمع في حلقه:

- لقد أحببتُ **"فاتن"** ولا شكّ في ذلك.. ولكني لا أجدُ مانعاً لتزوّجكِ منّي مع هذا السبب! إلا إذا كانت هذه الرغبة نابعةً من ذاتكِ!

أشاحت وجهها للناحية الأخرى، كادت تُخبره أنها بالطبع تريد أن تتزوجه.. ولكن فكرة أنه كان يُحب أخرى، ثم يتزوجها لكفيلةٌ بجعلها ترفض طلب زواجه..

أما **"محمود"**، فلمّا رأى صمتها قد طال.. قام من مكانه قائلاً لها بهدوء:

- سأعطيكِ أسبوعاً لتُفكّري بتريّث.

ثم خطى نحو الغرفة التي تجلس بها والدته، وقبل أن يرحل أكمل:

- ولتعلمي أنكِ إن وافقتِ، فستُعاملين بإذن الله كما يليقُ بوصيّة رسول الله ﷺ!

نظرت للأرض بشرود وهي تُفكّر، بينما هو أخذ والدته ورحلا سوياً..

ألقى عليها والداها نظرة صامتة، قبل أن يدخلا غرفتهما..

*****

مرّت خمسة أيام عليها وهي تُفكر أغلب وقتها.. انقسم قلبها لنصفين، نصفٌ موافقٌ على الزواج منه، وأنه بعد كل ذلك الوقت سيجتمعان في الحلال.. والنصف الآخر يشعر بالضيق والغيرة من أنه كان يُحب أُخرى!

وفي اليوم السادس، كانت **"جيهان"** تتصفح الفيسبوك فوجدت منشوراً يتحدث عن اختلاف قلب الرجل عن المرأة..
وأن الرجل قد يُحب أكثر من امرأة، كما أحب النبي ﷺ زوجاته.. ربّما يزيدُ حُبُّ واحدة في قلبه على أخرى..
وأن هذا شيءٌ لا يعيبُ الرجل، بل هي فِطرةُ الله..
ثم وجدت توضيحاً من كاتب المنشور أنه يقصد الحُبّ الحقيقي الحلال، وليست تلك النزوات العابِرة قبّحها الله!

قرأت المنشور بعناية، ثم أخرجت تنهيدة.. شعرت أن هذا المنشور جاء في وقته، ولكنها ما زالت غير واثقة..
خطر ببالها أخصائية نفسية تعرفها، فقررت أن تستشيرها ثم تستخير الله..
أرسلت إليها رسالة مُختصرة، ودَعت الله أن تردّ عليها بسرعة، ثم خرجت من الغرفة لتُساعد والدتها بغسل الصحون..

في المساء، وبعدما انتهت من ترتيب المنزل لزيارة الغد، دخلت غرفتها ثم أمسكت هاتفها لترى ردّ صديقتها.. لم تجد رسالة منها فشعرت بالإحباط..
تركت الهاتف وأخذت تدعو الله أن يرزقها الخير، وما زالت تدعو حتى سمعت صوت رسالة أتت لها.. أمنّت على دعائها، ثم أمسكت الهاتف بسرعة لترى الرسالة التي كانت عبارة عن:

"وعليكم السلام، كيف حالكِ يا رفيقة؟
تقولين أنكِ تُحبينه، وتظنين أنه كذلك.. إذاً ما الذي يمنع إتمام الزواج؟!
قلتِ أنه قريبكِ، وتعلمين طباعه، وقد أخبرتِني عنها.. ومن موقعي هذا أقول لكِ، أنه بإذن الله سيتقي الله فيكِ..
شخصٌ كهذا ترككِ في السابق رُغماً عن قلبه، ثم تزوج بأُخرى لا يعرفها، ومع ذلك عاملها بلُطف ثم أحبّها مع الوقت.. أظنُّ، بل مُتأكدة، أنه سيُعاملكِ كما يجب، خصوصاً وأنكِ السابقة في قلبه..
أقول رأيي، ثم أُخبركِ أن الأمر يعود إليكِ أولاً وأخيراً"

اطمأنّ قلب **"جيهان"** كثيراً بعد تلك الرسالة، فشكرت صديقتها، ثم ذهبت لتُصلّي استخارة..

*****

في صباح اليوم التالي، أخبرهم والدها أن جميع عائلته في (الصعيد) سيأتون، لذا كان العمل على قدمٍ وساق داخل المطبخ..

قبل وصول الضيوف، اقترب الأب من **"جيهان"** ثم قال لها بهدوء:

- هل اتخذتِ قرارك؟

وضعت السمك بالزيت، وهي تُجيبه بابتسامة:

- لا تقلق، لقد فكّرتُ جيداً.

تنهد الأب، قائلاً بخفوت:

- أعلم أن هذا قرارك وحدكِ، ولكن لا أُريدكِ أن تُحرجيني كما المرة الفائتة!

نظرت أمامها تُقلّب الطعام، وأجابته بخجل:

- أنا آسفة، ولكني كنتُ مُشتتة بعض الشيء.

هزّ رأسه بتفهّم، ثم ترك المطبخ.. كل ذلك كانت تتابعه الأم، فقالت بهدوء:

- علام قررتِ؟

أجابت **"جيهان"** بخجلٍ فطريّ:

- كلّ خيرٍ بإذن الله.

فهمت الأم من نبرتها أنها ستوافق، فابتسمت باتساع..

*****

رحّبوا بهم، وخصوصاً الجدّ الذي احتضن **"جيهان"**..

وبعد تناول الغداء، جلسوا يشربون الشاي كالعادة بين حديث ومزاح..
حمحم الجدّ بقوة، ثم سأل **"جيهان"** بابتسامة هادئة:
- ماذا قلتِ يا ابنتي بشأن طلب **"محمود"**؟
انتبه الجميع، خصوصاً **"محمود"** الذي كان يشعر بالقلق والحزن من رفضها.. نظرت **"جيهان"** تجاه السّجادة، وأجابت بخفوت وخجل:
- موافقة!
تنهد والدها بارتياح، وشرعت عمتها تُطلق الزغاريد.. بينما كان **"محمود"** في وادٍ آخر..
ابتسم باتساع حتى بانت نواجذه، بينما كان قلبه ينبض بسعادة وحُب وهو سعيدٌ أنهما أخيراً سيجتمعان في الحلال.. بإذن الله!
سأل الجدّ مرة أخرى بنفس الابتسامة:
- إذاً أتصِلُ بالمأذون؟
طرق قلب الأخرى بخجل وتردد، بينما نظر الآخر لجدّه بامتنان..

مرّت دقيقتان، ولم تُجبهم **"جيهان"** بعد.. فسألها **"محمود"** هذه المرة برجاء:

- موافقةٌ أن نعقد قراننا اليوم؟ لا أظن أنّ الانتظار ذو فائدة!

كادت تبكي من الحرج، فغطت وجهها بيدها.. قهقه الأب على خجلها النادر، وقال بابتسامة:

- السكوت علامة الرضا!
-

ولم تدرِ بنفسها، حتى سحبتها عمتها وزوجة عمها الراحل لغرفتها، ثم وقفت والدتها أمام خزانة ملابسها..

أخرجت لها فستاناً رقيقاً بلون السماء، وحجاباً بنفس اللون..

أطلقت عمتها زغرودة أخرى، ثم ضحكن معاً قبل أن يخرجن من الغرفة حتى ترتدي ملابسها..

نظرت للملابس على السرير، ثم علت ضحكاتها وقفزت بسعادة..

بعد ربع ساعة، سمعت صوت جرس الباب، وبعدها مُباشرة دخلت النساء عليها.. كانت تُعدّل حجابها، فوقفت والدتها أمامها ثم شرعت هي تُعدّل حجاب ابنتها بدموع تنهمر على وجنتيها، ثم انتهت واحتضنت ابنتها بقوة فبادلتها **"جيهان"** وهي تحاول كبت دموعها!

تحدثت عمتها بمرح:
- أنتنّ النساء، تُحببن البكاء حتى في أوقات الفَرح!
ضحكن عليها، ثم مسحت **"جيهان"** دموعها قائلةً بمزاح:
- لا تقلقي، ما زلتُ سأجلس معكِ كثيراً!
ابتسمت عمتها وزوجة عمها، ثم قالت الأولى بحماس:
- هيا حتى يبدأ المأذون عقد القرآن.

*****

كانت تجلس بجانب والدها، تنظر للأرض بتوتر من الموقف..
وما إن ختم المأذون حديثه، حتى قام والدها و**"محمود"** واحتضنا بعضهما بحبور، وهي تنظر لهما بسعادة.. كاد والدها يقول شيئاً، ولكن سبقه **"محمود"** بابتسامة هادئة:
- لن توصيني على نفسي! وأقولها لكَ يا خالي، إن أنا أحزنتُها، عليكَ أن تقتصَّ مني بنفسكَ!
دمعت عيناها بتأثر من حديثه ونظرة والدها لهما..

ذهب **"محمود"** ليوصل المأذون، ثم عاد ونظر إليها بتمعّن وقال:
- خالي، هل يُمكنني استعارة **"جيهان"** عشر دقائق في الشرفة؟

رفعت الأخرى عيناها، فوجدته مُثبتاً بصره عليها، فازدادت ضربات قلبها وشعرت بالخجل..
دخلا الشرفة، وجلسا على بلاط الأرضية أمام بعضهما.. بدأ الحديث قائلاً بابتسامة:

- أنا آسفٌ لهذه السرعة، ولكن أعتقد أننا انتظرنا كثيراً ليأتي هذا اليوم!

ثم صمت ثوانٍ، وأضاف بمرح:

- كما أن بقلبي حديثٌ، لا يُقال إلا بعد عقد القرآن!

خجلت من حديثه، بعدما علمت قصده.. ثم سألته بهدوء:

- كيف أصبحتَ هكذا؟ أعني أنكَ لم تُعاملني أبداً بمرح أو لُطف.. دائماً كُنتَ جاداً، حتى حسبتكَ كئيباً!

أمسكَ يدها مُقبلاً إياها، ثم أجابها بابتسامته الواسعة:

- لأني كنتُ أُحبكِ.. ولأنكِ لم تكوني بعدُ مِلكي.. ولأن من يُحب حقاً، يخشى على محبوبه.. حتى من نفسه!

نبض قلبها بسرعة لاعترافه، بينما أخذَ هو نفسها يُهدئ ضربات قلبه المُتحمسة وقال بحُب:

- **"جيهان"**، أنتِ تؤكدين أبيات الشعرِ التي تقول:

"نقّل فؤادكَ حيثُ شئتَ من الهوى
ما الحبُّ إلا للحبيبِ الأولِ"

وأنا كنتُ، وما زلتُ أحبكِ.. أُحب تصرفاتكِ المتناقضة أحياناً.. أُحب تهوركِ، وهدوءكِ!

ثم صمتَ ثوانٍ ناظراً داخل عينيها، وأكمل بابتسامة:
- **"جيهان"**، أيكفي قولي عن عينيكِ، أنني دونهما ضائعٌ مُشتت؟! أكون كالمُدمنِ، ولا أستطيع إكمال يومي دون أخذِ جُرعتي والغرق بهما..!

تسارعت نبضات قلبها بشدة، والتمعت عينيها بسعادة وحُب.. فنظرت لعينيه، وقالت بهمس رقيق:
- أما أنا، فأحببتُ عينيكَ المكحولتين! لطالما أوقعتني في شِراكهما عِند النظر لهما!
ابتلع ريقه علّه يُخفف من صخب حفل الزفاف الذي يُقام داخل قلبه.. وقال لها بمزاح:
- أحببتِ عيناي فقط؟! إذاً أنتِ لم تُحبيني!

ضحكت بخفة، فقبّل يدها ورأسها.. ثم رفع رأسه تجاه الشمسِ الآخذة في الغُروب!
الآن فقط كان شعر بالراحة تتخلل جوانب روحه!

تمت بحمد الله

رغد أيمن